أدلة إثبات النبوة عند المتكلمين
في ميزان فلاسفة الإسلام
ابن رشد أنموذجا

د. عزيز البطيوي[1]

تمهيد:

تكتسي مسألة النبوة أهمية بالغة في تاريخ الحضارات الإنسانية باعتبارها واحدة من أعظم حقائق الوجود وأجل هدايات الخلق إلى معرفة الخالق وأرقى منازل التلقي والتخلق والتحقق بمقتضيات المعرفة المبصرة والعبودية الحقة والإنسانية البانية الهادية لعمران بشري راشد. ولقد مرت الإنسانية عبر تاريخها الطويل بأطوار تاريخية وحضارية متعددة صاحبتها رسالات إلهية إرشادا وهداية وتسديدا وتصويبا على مستوى الأفكار والعقائد، والسلوك والممارسات، وأنظمة الحياة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية تأكيدا على قصور العقل البشري في تفرده بإدراك الحقائق وحاجته إلى إرشاد إلهي تتجلى بصائره في ابتعاث الرسل والأنبياء.

إن قضية النبوة ليست مجرد قضية كلامية أو فلسفية فقط، إنها أكبر من ذلك، فهي قضي حضارية تتعلق بإنقاذ الإنسان وبيان الطرق الحقة الموصلة إلى السعادة والنجاة في شتى مجالات الاعتقاد والفكر والاجتماع والاقتصاد والسياسة مع الكشف عن حقائق النفس والعمران والطبيعة بوحي إلهي لا مبدل لكلماته. وقد راكمت البشرية عبر تاريخ النبوات خبرات منهجية ومعرفية وقيمية وتجارب على المستوى الفردي والجماعي حتى بلغت البشرية مستوى من النضج العقلي والرشد الإنساني فكانت النبوة الخاتمة رحمة للعالمين وتحقيقا للشهادة على الخلق

[1]أستاذ بكلية الآداب والعلوم الإنسانية- جامعة ابن زهر- المغرب

أجمعين بمنهجية ثلاثية تقوم على تلاوة الآيات وتعليم علوم الكتاب والحكمة وتزكية الأنفس والجماعات.

ولعل الناظر في آيات القرآن المجيد الواردة في شأن النبوات والرسالات يبصر حقيقة النبوة وماهيتها ووظائفها وآثارها في الكون والحياة والإنسان.

وقد أنتجت عبر تاريخ الفكر عامة والفكر الإسلامي خاصة مقاربات فقهية وكلامية وفلسفية وصوفية حول مسألة النبوة بمنظورات ومناهج مختلفة عبرت عن الخصوصية العقدية والمعرفية والحضارية التي تكتسيها قضية النبوة من حيث هي قضية عقدية لها امتدادات تشريعية في الحياة والكون والإنسان وكونها من أعظم الضرورات التي يتوقف عليها وجود الاجتماع البشري واستمراريته وصلاحه، إذ بدونها لم يكن العقل الإنساني قادرا لوحده على تبصر ذاته وإحكام رؤيته للظواهر والأشياء والأفكار. وسنقدم هنا نموذجا لمقاربتين تدافعتا فيما بينهما مدافعة فكرية ومنهجية أثرت مجال الفكر الإسلامي في مسألة النبوة على المستوى الكلامي والفلسفي وكانت هذه المدافعة تعبيرا بحق عن اللحظة التاريخية التي عرفها العقل المسلم في تفاعله مع واقعه ومع منظومته المرجعية المتمثلة في الوحي وهو تفاعل عرف مدا وجزرا بحسب الرؤية المنهجية التي حكمت هذا العقل المسلم في تعامله مع الوحي ومع الفلسفات والثقافات والمنظومات الحضارية والأنساق المعرفية للمجتمعات الأخرى.

في دلالات مفهوم النبوة:

يدل لفظ النبوة لغة على الإخبار والإعلام فالنبوة هنا من الإنباء، كما أنها من النبوة وهي الرفعة والعلو. وفي الدلالة القرآنية هي اصطفاء رباني واختيار إلهي لمن شاء الله من عباده أن ينبئه فينبئ هو بما أنبأه الله تعالى رحمة منه سبحانه ومنة، ولا يشترط في النبوة التبليغ بخلاف الرسالة، فكل رسول هو نبي وليس كل نبي هو رسول وإن كان معا يتلقيان الوحي من الله. وقد سجل تاريخ المعرفة الإسلامية هذا المقام كلاما كثيرا نعرض عنه مكتفين بما ذكرنا مما تثبته آيات القرآن أخذا

بالمجال التداولي لمفهوم النبوة الذي يراعي الوحدة السياقية لورود مشتقات لفظ النبوة في القرآن الكريم كما يراعي الوحدة المقامية لمنزلة النبوة وهو ما سيترتب عنه لا محالة عدم القبول بتعريف النبوة وفق مفاهيم لا يقبلها المجال التداولي من مثل الفيض والتخيل والعقل الفعال والنفس الفلكية.

لماذا ابن رشد وكتابه" الكشف عن مناهج الأدلة في عقائد الملة"

تكتسب العودة إلى كتاب ابن رشد"الكشف عن مناهج الأدلة في عقائد الملة" -وهو كتاب نقدي اعتراضي- مشروعية مزدوجة : أ- **مشروعية تاريخية** ترتبط بالحضور الرشدي في عمق الحوار الكلامي العقدي الذي كان سائدا قبله وفي زمانه، وهو نموذج للحوار والمدافعة التي جرت بين الفكر الكلامي الإسلامي والفكر الفلسفي الإسلامي .

ب-: مشروعية راهنية تؤكدها ظروف المسلمين اليوم ومالانتابهم على المستوى القلبي والسلوكي من ابتعاد عن روح العقيدة وفكرة التوحيد وضرورة العودة بعلم العقيدة إلى صفات النضج والواقعية لمواجهة تحديات العولمة والحداثة في أبعادهما المدمرة لكيان الإنسان .

ويسعفنا في ذلك على الأقل إعادة صياغة كتب علم الكلام والفلسفة بما يحقق شرط الواقعية والوجاهة والإنجازية الحضارية. ويخرط كتاب ابن رشد ضمن هذا المشروع بغض النظر عن مدى تعبيره عن ذلك الشرط، لكون الرجل كان فقيها وطبيبا وفيلسوفا وقاضيا. فاستنباطات الفقيه وحكمة الفيلسوف وتفاؤل الطبيب وموضوعية القاضي امتدت لتخلف لنا تراثا عظيما تفخر به الإنسانية.

ويجدر بنا أن نشير في هذا التقديم إلى أن كثيرا من الدارسين تناولوا بشيء من التفصيل أعمال ابن رشد الفلسفية والطبية، في حين لم ينل عمله المتعلق بالجوانب الاعتقادية حظه الكافي من البحث والدراسة، ومن هنا جاز لنا أن نتساءل عن سر هذا النقص، هل لأن ابن رشد رفض مبدأ فتح الفلسفة على الفضاءين الكلامي والصوفي؟ أم أن كتابه ليس سوى دفاعا عن التقليد في وجه

المتكلمين ممثلين في الأشاعرة على حد قول الفيلسوف طه عبد الرحمن؟ أم أنه عاجز اليوم عن إسعافنا بعدة معرفية ومنهجية تعين على خوض مجال علم الكلام الجديد؟

المداخل الثلاثة لقراءة كتاب كشف مناهج الأدلة :

إذا كان كتاب"الكشف عن مناهج الأدلة" كتابا اعتراضيا نقديا يروم من خلاله ابن رشد تصحيح التصور العقدي لقضايا الإلهيات والنبوات والبعث والمعاد ومواجهة خصومه من المتكلمين وغيرهم فإننا نرى أن قراءة هذا الكتاب ينبغي أن تتم من خلال المداخل الآتية:

1 – ضرورة فهم البدايات الأولى لعلم الكلام إلى حدود اللحظة التاريخية لابن رشد، والتمييز في تاريخ علم الكلام بين مرحلة النشأة ومرحلة التطور. وأنه ذلك العلم الذي استجاب للتحديات العقدية والفكرية والثقافية والسياسية التي واجهت المجتمع المسلم فانبرى للدفاع عن العقائد الإيمانية بأساليب استدلالية حجاجية تعبر تارة عن الرؤية القرآنية وتبتعد عنها تارة أخرى بحسب المنهجية المعتمدة من قبل المتكلم.

2 – ملاحظة المشروع الكلامي في الغرب الإسلامي، سواء على مستوى ظاهرية ابن حزم أو التطبيق العملي لمحمد بن تومرت وترسيخه لعقيدة الأشاعرة ضد المرابطين أهل التسليم والتفويض. إلا أن هذا المدخل وبهذه الصيغة التي أوردها الجابري في مقدمته لكتاب ابن رشد ليست كذلك، والدليل على ذلك ما أكده الباحث محمد بنتهيلة من عدم وجود قطيعة معرفية ومنهجية بين عهد المرابطين وعهد الموحدين، بل أثبت وجود تطابق بين أهم التوجهات الكلامية في العهدين معا[2]، وهو عين ما سيذهب إليه بنوع من التفصيل في كتابه الأخير[3] حيث سيرد دعوى عبد الواحد المراكشي المتعلقة بإهمال المرابطين النظر في النصوص

---

[2]- التوجهات العقدية في المغرب والأندلس في ق 6هـ (من خلال الإلهيات)، محمد بنتهيلة، رسالة جامعية لنيل دكتوراه الدولة، 1998

3- نحو قراءة جديدة لتاريخ المغرب والأندلس في القرن6هـ، محمد بنتهيلة، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة ابن زهر أكادير، 2014.

ومحاربتهم البحث الكلامي والفلسفي، كما سيعمد إلى إبطال افتراءات المستشرقين وبعض المفكرين والباحثين أمثال محمد عابد الجابري ومحمد زنيبر الذين يقولون بتميز اللحظة التاريخية الموحدية بحركة عقلانية وثورة فكرية منفتحة أحدثت قطيعة مع اللحظة المرابطية الفروعية والمقلدة.[4]

3- الحديث عن النص الرشدي والوعي بإسهامه في مشروع تصحيح العقائد وذلك من خلال الكشف عن رشدية سجالية تدافع عن الاشتغال بالظاهر والوقوف على المقصد الشرعي من القضايا العقدية، بعيدا عن تأويلات المبتدعين وأقاويلهم المحدثة سواء كانوا أشعرية أم معتزلة...

وقد جاء كتابه مبينا لحقائق الاعتقاد وأصوله؛ من الحديث عن الربوبية والألوهية، وصفات الله تعالى وتنزيهه، ومعرفة الأفعال، وحدوث العالم، و بعث الرسل، والقضاء والقدر، والجور والعدل، والقول في المعاد وأحواله.

مسألة النبوة

يشكل البحث في نظرية النبوات بحثا في أسمى مظهر من مظاهر علاقة الإنسان بالله، وكان غرض النبي هو إثبات صحة دعوى الرسالة والإتيان ببرهان صادق على نبوته.

وقد ظلت قضية إثبات النبوة كمسألة عقدية إيمانية متأخرة من حيث ظهورها كقضية كلامية، وذلك "لأن التحدي الوارد فيها إنما جاء من أصحاب ديانات الهند في الأكثر، وخاصة البراهمة ... ولذلك فإن القرن الثالث شهد البحث المستفيض في قضية النبوة من قبل المتكلمين دفعا لما روجه منكروا النبوة وخاصة منهم ابن الراوندي (ت298هـ) وأبو بكر الرازي (ت311هـ)[5]

4- انظر كتاب نحن والتراث، محمد عابد الجابري، ص235. ومقال ابن رشد والرشدية في إطارهما التاريخي، محمد زنيبر، أعمال ندوة ابن رشد، ص25

5- فقه التدين فهما وتنزيلا، عبد المجيد النجار،ص:141-142.

فقد أكد ابن الراوندي أنه لا حاجة للوحي مطلقا،وأن المعجزات التي تقوم عليها دعوة النبوة باطلة عن آخرها، أما أبو بكر محمد بن زكريا الرازي فقد ألف كتاب"مخاريق الأنبياء وحيل المتنبئين" ينكر فيه صراحة مفهوم الوحي ودور الأنبياء بوصفهم وسائط بين الله والإنسان، ويستدل لذلك بأن النبوة ليست ضرورية لكفاية النور الإلهي في العقل للتمييز بين الحق والباطل[6] .

إن ظهور كتابات تشكك في مسألة النبوة تحت تأثير أصحاب الديانات والثقافات والحضارات

الأخرى دفع بعلماء الكلام إلى رد هذه الشبهة الخطيرة، لأن إبطال النبوة هو إبطال للشريعة .

ومن هنا لم يكن التنظير العقدي في مسألة النبوة ترفا أوتجريدا فلسفيا متعاليا على الواقع وإنما كان تعبيرا عن محاولة لاستيعاب التحول الاجتماعي الحاصل كنتيجة للانفتاح الثقافي والحضاري وتحديا

لعاديات الغزو العقدي والفلسفي .

عرض الاستدلالات الكلامية على إثبات النبوة

اتجه نظر ابن رشد في مسألة بعث الرسل إلى أمرين: الأول يتعلق بإثبات الرسل، والثاني يتعلق ببرهان الرسالة وما ارتبط بهما من قضايا كالمعجزة ودلالة المعجز، العادة والجواز، العلم والعمل، السمع والعقل،... ثم فرع على مثل ذلك قضايا استدلالية ونظرا عقليا في ردود المتكلمين على فرقة البراهمة المنكرة لمسألة النبوة.

ولم يكن ابن رشد ليقبل الخطاب الجدلي الكلامي في إثبات النبوة فانبرى للكشف عن اختلالاته المتعددة متخذا في ذلك استراتيجية عرض دعوى

---

[6]- الدين والفكر في شراك الاستبداد، محمد خاتمي،ص:593.

الاستدلال الكلامي وردها إلى أصولها ومنطلقاتها ونقد ذلك ودحضه مما يفيد دحض دعاويهم.

ويستعرض ابن رشد مجمل مقدمات المتكلمين في إثبات النبوة ثم يشغل نظره البرهاني فيها . ويمكن إجمالها على الشكل الآتي :

مقدمات المتكلمين

- *المقدمة الأولى : وتستند إلى مسلك صفات الذات الإلهية، ذلك أن* اتصاف الله تعالى بالكلام والإرادة والملك والتصرف يفيد جواز بعثه للرسل، وإمكان حصول ذلك الأمر الغائب (بعث الرسل) قياسا على الشاهد (صفات الله ...) ويعبر ابن رشد عن ذلك بقوله: " .....وهم المتكلمون، وقالوا: قد ثبت أن الله متكلم ومريد ومالك لعباده، وجائز على المتكلم المريد المالك لأمر عباده في الشاهد أن يبعث رسولا إلى عباده المملوكين، فوجب أن يكون ذلك ممكنا في الغائب"[7]، ويرجع هنا المتكلم الأشعري إلى دليل قياس الغائب على الشاهد للاستدلال على إثبات النبوة.

-*المقدمة الثانية*: وتتعلق بمسلك المعجزة ودلالته على الرسالة، ذلك أن ظهور المعجزة على يدي الرسول علامة دالة على صدق رسالته، "وقالوا هذه العلامة ظهور المعجزة على يدي الرسول "[8].

وعن هذه المقدمة الثانية فرع المتكلمون مقدمتين اثنتين تتعلقان بتثبيت الرسالة وهما:

-*المقدمة الثالثة* : أن كل من ادعى الرسالة صح له ادعاؤه متى قدم بين يدي ذلك أمرا معجزا. وقد سلك المتكلمون هنا مسلك دلالة المعجز على وجود الرسالة .

[7]- الكشف عن مناهج الأدلة، ابن رشد، ص:109

[8]- المصدر نفسه، ص109.

-*المقدمة الرابعة* : أن كل من بدا منه أمرا معجزا أو تجلت على يديه معجزة فهو نبي / رسول . ويجمل – ابن رشد – الحديث عن هاتين المقدمتين فيقول:" وذلك أن تثبت الرسالة ينبني على مقدمتين: إحداهما أن هذا المدعي الرسالة ظهرت على يديه المعجزة، والثانية أن كل من ظهرت على يديه معجزة فهو نبي، فيتولد من ذلك بالضرورة أن هذا نبي."[9] .

-*المقدمة الخامسة*: وتقوم على مسلك الجواز والإمكان العقلي أي دلالة العقل على وجود الرسل، إذ العقل يجوز ذلك ويقضي به، والجواز من طبيعة الموجود وممكن الوجود أو ما يعبر عنه بالعوالم الممكنة، وعبر ابن رشد عن هذه المقدمة التي جرت على ألسنة بالمتكلمين بقوله: "إن وجود الرسل يدل عليه العقل لكون ذلك جائزا في العقل"[10].

-*المقدمة السادسة*: وترتبط بالدليل على أن من ظهر على يديه المعجز فهو رسول، ويستند المتكلم هنا إلى السمع أي الدليل النقلي (الوحي) فيثبت الرسول أن ماجاء به معجزة عبر ارتكازه إلى كلام الله إليه، فكلام الله ووحيه دال على صدق تلك المعجزة وأنها من عند الله " فمتى سلمنا أن الرسالة موجودة والمعجز موجود فمن أين يصح لنا أن من ظهر على يديه المعجز فهو رسول؟ وذلك أن هذا الحكم ليس يمكن أن يؤخذ من السمع، إذ السمع لا يثبت من قبل هذا الأصل فيكون من باب تصحيح الشيء بنفسه، وذلك فاسد"[11].

كانت هذه مجمل المقدمات التى اعتمدها المتكلمون لإثبات النبوة، وقد تناولها ابن رشد بالنقد فبين فسادها وضعف مسالكها وجعلها لا ترقى إلى مستوى الخطاب البرهاني اليقيني إذ هي لا تلائم سوى جمهور الناس ولا تقنع إلا عامتهم،

---

[9]- ابن رشد، ص: 110

[10]- ابن رشد، ص: 110

[11]- ابن رشد، ص: 111.

من أجل ذلك انبرى ابن رشد لرد كل مقدمة على حدة ودفعها باستدلالات مغايرة .

اختلالات منهج المتكلمين في إثبات النبوة حسب ابن رشد.

يكشف القول الرشدي في انتقاده لطريقة المتكلمين في استدلالهم على إثبات النبوة عن كونها لا تجري مجرى الأدلة الشرعية والطبيعية، ولذلك:

يرى ابن رشد أن المتكلم الأشعري قد رام إثبات النبوة بالقياس وهو لا يثبت هنا إذ الفارق واضح.

لا تعدو أن تكون المقدمة الثانية المتعلقة بالمعجزة كعلامة دالة على صدق رسالة الرسول مقدمة لائقة بالجمهور بوجه ما للخلل الحاصل فيها إذ لا يمكننا تصدق مدعي الرسالة مهما ظهرت على يديه علامات إلا إذا حصل عندنا علم ويقين أن تلك العلامات هي علامة الرسالة والنبوة "وذلك إمايقول الملك لأهل طاعته إن من رأيتم عليه علاماتي المختصة بي فهو رسول من عندي، أو بأن يعرف من عادة الملك أن لاتظهر العلامات إلا على رسله "[12] لكن ابن رشد يتساءل عقب ذلك فيقول: "من أين يظهر أن ظهور المعجزات على أيدي بعض الناس هي العلامات الخاصة بالرسل ؟"[13] وهو استفهام يبتغي منه ابن رشد رد هذه المقدمة التي لا تثبت إلا بالشرع، فكيف ندرك أن صاحب المعجزة هو الرسول وليس غيره؟، ونفى ابن رشد عن العقل إمكانية الحكم بدلالة المعجزة على الرسول والقطع بكونها علامة على صدق رسالته"إلا أن يكون قد أدرك وجودها مرات كثيرة للقوم الذين يعترف برسالتهم ولم تظهر على أيدي سواهم"[14] فهذا لا يصح إلا إذا تواترت نظرة العقل إلى ارتباط العلامة بالرسالة وإلا بطل حكمه في ذلك .

---

[12]- ابن رشد، ص109

[13]- ابن رشد، ص109

[14]- ابن رشد، ص110.

وفيما يخص رد ابن رشد على المقدمة الثالثة القائلة بظهور المعجزة على مدعي الرسالة وهي من جنس المقدمة السابقة، فهي مقدمة تثبت بالحس لا بالتخيل وأنها حقا علامة معجزة ولاتتعلق بصناعة غريبة من الصانع ولا بخاصة من الخواص فكيف لنا إذن التمييز بين الأمر المعجز والصنعة الغريبة وهل يظن بكل من قدم أمرا فوق قدرة العقل أن ادعاءه للرسالة صحيح ؟ وهذا يقتضي حسب ابن رشد"أن نسلم أن هاهنا أفعالا تظهر على أيدي المخلوقين"[15] .

4- ويبين ابن رشد فساد المقدمة الرابعة القائلة أن كل من ظهرت على يديه المعجزة فهو رسول بكونها لا تصح إلا بعد "الاعتراف بوجود الرسل، وبعد الاعتراف بأنها لم تظهر قط إلا على من صحت رسالته"[16]، وذلك لأن هذه المقدمة حسب ابن رشدهي مقدمة خبرية وهي لأجل هذا لا تصح إلا عند من حصل منه وصدر عنه اعتراف بوجود الرسالة ووجود المعجزة. فهذه المقدمة في أصلها نتيجة تتعلق بمقدمتين اثنتين هما اللذان جعلهما ابن رشد شرطا في صحة المقدمة الرابعة لأنه "من أين لنا بصحة قولنا أن كل من ظهرت على يديه المعجزة فهو رسول، والرسالة لم يثبت وجودها بعد؟ هذا إن سلمنا بوجود المعجزة أيضا على الصفة التي يلزم بها أن يكون معجزا"[17].

فلا يمكن إذن قبول هذه المقدمة من قبل منكري النبوة لأنهم لا يثبتون الرسالة أصلا لإنكارهم الخبر في ذلك، كما لا يمكن الادعاء بأن إثبات الرسالة ووجود الرسل ممكن عقلا وجائز نظرا، ذلك أن "الجواز الذي يشيرون إليه هو جهل وليس هو الجواز الذي في طبيعة الموجودات"[18]، ولذلك لم يميز المتكلمون حقيقة بين فكرة الجواز لأنه إمكان وفكرة الامتناع لأنه جهل، ويشير ابن رشد إلى ذلك بأن الخصم (منكر النبوة) لو"اعترف بوجود رسول واحد في وقت من

---

[15] - ابن رشد، ص110.

[16] - ابن رشد، ص110.

[17] - ابن رشد، ص110.

[18] - ابن رشد، ص111

الأوقات لظهر أن الرسالة من الأمور الجائزة الوجود. وأما والخصم يدعي أن ذلك لم يحس بعد، فالجواز الذي يدعيه إنما جهل بأحد المتقابلين، أعني الإمكان والامتناع " [19] .لكن ابن رشد يذهب أبعد من ذلك حيث يسلم جدلا بوجود الرسالة ووجود المعجز فيتساءل: " فمن أين يصح لنا أن من ظهر على يديه المعجز فهو رسول؟ وذلك أن هذا الحكم ليس يمكن أن يؤخذ من السمع"[20] والسمع ينكره الخصم فلا يمكن التعويل عليه، كما أنه لا سبيل إلى القول بدليل التجربة والعادة " إلا إذا شوهدت المعجزات ظاهرة على أيدي الرسل، أعني من يعترف بوجود رسالتهم."[21]

وفي ارتباط مع المقدمة الخامسة لا يرى ابن رشد وقوع دلالة المعجز على صدق الرسالة ذلك أن العقل ليس بإمكانه إدراك الارتباط بينهما إلا أن يعترف هذا العقل أن المعجز فعل من أفعال الرسالة وأن دلالتها لا تظهر إلا على أيدي الأفاضل وهم الأنبياء، لكن المتكلمين يجوزون ظهورها على أيدي الساحر وعلى يدي الولي، وهنا قد تكون الدعوى كاذبة لأن الخوارق لا تظهر إلا على يدي أحد من الفاضلين ويكون رسولا وأما السحر فمجرد تخيل، ولهذا المعنى أشار ابن رشد إنكار البعض وقوع الكرامات[22].

ولعل الناظر في المتن النقدي الرشدي للمتكلمين سيجد أنه وجه مآخذ قادحة من وجهة نظره في علم الكلام وذلك من خلال مأخذين رئيسيين"أحدهما أن طرق المتكلمين غير صالحة للجمهور، لأنها طرق معقدة ومطولة، بينما الجمهور يحتاج غلى طرق بسيطة وقليلة، ولا هي صالحة للخاصة، لأنها غير يقينية. والثاني أن طرق المتكلمين تخل بالعقل لأنها تخالف المبادئ المنطقية، مثل مبدإ عدم التناقض ومبدإ

---

[19]- ابن رشد، ص:111.

[20]- ابن رشد، ص111

[21]- ابن رشد، ص112

[22]- ابن رشد ، ص112_113 بتصرف

الثالث المرفوع، كما تخل بالشرع لأنها تصرح بما سكت عنه الشرع وتقوله ما لا يقول."[23].

وإذا كان هذا هو نقد ابن رشد لمنهج المتكلمين وطرقهم الاستدلالية في إثبات النبوة، فما هو السبيل الذي اعتمده في مقابل ذلك ؟

استدلالات ابن رشد على إثبات النبوة:

يستهل ابن رشد حديثه عن الأدلة المثبتة للنبوة بالاعتماد على منهج استقرائي سلك فيه تتبع أحوال الرسول ﷺ وسيرته، فيظهر أنه لم يقدم للناس أوالأمم الأخرى - ليصدقوا برسالته – خارقا من الخوارق، على أن ما تجلى على يديه من الكرامات والخوارق إنما هي مجرد أحوال عابرة لم يرد بها التحدي، ودليل ذلك عند ابن رشد قوله تعالى : " وقالوا لن نومن لك حتى تفجر لنا من الارض ينبوعا "إلى قوله : " سبحان ربي هل كنت إلا بشرا رسولا"الإسراء من الآية 90 إلى 93) وقوله تعالى: " وما منعنا أن نرسل بالآيات إلا أن كذ ب بها الاولون "الإسراء:59. فتكذيب الأقوام والأمم السابقة برسالات أنبياء الله تعالى لايقيم صرح رسالة محمد ﷺ على أساس خوارقي يرغم الخصم قهرا على الاستجابة والخضوع . وهنا يعتمد ابن رشد على القرآن الكريم كشاهد على أن صدق نبوة محمد ﷺلم تقم على الإرغام عن طريق الإتيان بما يشبه قلب عين من الأعيان إلى عين أخرى .

وإذا كان الأمر كذلك فما هو الدليل الذي يثبت صدق رسالة محمد ﷺ ؟ يقول ابن رشد في ذلك:" وأما الذي دعا به الناس وتحداهم به، هو الكتاب العزيز فقال تعالى:"فاتوا بعشر سور مثله مفتريات"هود:13. وإذا كان الأمر هكذا فخارقه ﷺ الذي تحدى به الناس وجعله دليلا على صدقه فيما ادعى من رسالته هو الكتاب العزيز"[24].

---

[23]- تجديد المنهج في تقويم التراث، طه عبد الرحمن، ص150.

[24]- ابن رشد، ص113.

فالقرآن هو المعجزة الدالة على وجود الرسالة المحمدية وصدقها. وإذا كان هذا أول دليل يقيمه ابن رشدعلى إثبات نبوة محمد ﷺ، فكيف يصح القول أن صاحبه رسول وأن ما في هذا الكتاب العزيز معجز؟ وقد تقدم بيان ابن رشد ضعف دلالة المعجز على وجود الرسالة فكيف به وهو هنا عين المرسل بها، ثم إن القرآن كلام وإن كان معجزا فإنه من جنس الأفعال المعتادة التي برع فيها العرب. يجيب ابن رشد عن هذا الإشكال أن القرآن "صار معجزا بالصرف أعني بمنع الناس عن أن يأتوا بمثله لا بكونه من الطور العالي من الفصاحة "[25].

لكن إذا كان هذا هو الوجه المرجح عند ابن رشد في بيان إعجاز القرآن الكريم فإنه لا يكفي وحده في الاستدلال على صدق نبوة محمد ﷺ، لذلك صرف ابن رشد نظره إلى القرآن يؤصل من خلاله لأصلين عظيمين يدلان على صدق نبوته ﷺ:

أ – الأصل الأول: أن النظر في التاريخ الإنساني يشهد بوجود رسل وأنبياء يشرعون للناس عن طريق الوحي لا عن طريق التعلم، وقد صح هذا الخبر وتواتر كتواتر الحكماء. ويستدل ابن رشد على ذلك بقوله تعالى: " إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده"، إلى قوله" وكلم الله موسى تكليما"النساء:163، وقوله تعالى: " قل ما كنت بدعا من الرسل "الأحقاف:9.

ويضيف ابن رشد الى أن صحة دعوى النبي يؤيدها وقوع الأشياء وخروجها إلى الوجود على الصفة التي أخبربها ويقدم لهم معرفة وعلوما غير محايثة لمستوى التعلم والاكتساب الإنساني، فدل هذا الخارق المعرفي على أن الأمر وحي من الله وأن المرسل إليه هو نبي" فعلى هذا ينبغي أن نفهم الأمر في دلالة المعجز على الأنبياء، أعني أن المعجز في العلم والعمل هو الدلالة القطعية على صفة النبوة، وأما المعجز في غير ذلك من الأفعال فشاهد لها ومقو"[26].

---

[25]- ابن رشد ، ص114.

[26]- ابن رشد، ص116.

ب -الأصل الثاني: وهو كون محمد ﷺ جاء بالوحي دليلا على نبوته ورسالته، فكان الوحي القرآني برهانا على صدقه لكونه هو الحق مطلقا، وهذا يعلم من الكتاب العزيز، ولذلك نبه على هذا الأصل فقال عز وجل: " يا أيها الناس قد جاءكم برهان من ربكم وأنزلنا إليكم نورا مبينا"النساء:174. يعني القرآن، وقال سبحانه: "ياأيها الناس قد جاءكم الرسول بالحق من ربكم فآمنوا خيرا لكم"النساء:170. لكن كيف يثبت أن يكون القرآن برهانا ودليلا على نبوة النبي واستحق أن يكون كلام الله؟

يمكن الوقوف على ذلك من وجوه عدة وطرق مختلفة[27]:

أن الشرائع التي تضمنها – العلمية والعملية – لا يقد ر على اكتسابها بالتعلم.

إعلامه بالغيوب مما لا يدرك بالحس أو العقل أو التخيل، ووقوع ذلك على الصفة التي أعلمه بها.

نظمه المعجز المفارق للنظم الحاصل بالفكر والروية، والتعلم والصناعة.

بيانه طريق السعادة والشقاء، وتقديمه لمعرفة خاصة بالله وبالنفس البشرية والإعلام بأحوال المعاد مما يكون ممتنعا – أو دون الأفضل – بدون وحي.

أمية الرسولﷺ، ونشأته في أمة عامية بدوية لم يمارسوا العلوم قط ولا نسب إليهم علم .... وإلى هذا أشار الحق سبحانه بقوله: " وما كنت تتلو من كتاب من قبله ولا تخطه بيمينك، إذا لارتاب المبطلون"العنكبوت:48.

مقايسة شريعة القرآن بسائر الشرائع يوضح أفضلية لامتناهية لرسالة محمد عليه الصلاة والسلام على سائر الرسالات علما وعملا، "ولو ذهبنا لنبين فضل ... الشريعة المشروعة لنا معشر المسلمين على سائر الشرائع المشروعة لليهود والنصارى ....لاستدعى ذلك مجلدات كثيرة، ...ولهذا قيل في هذه الشريعة أنها خاتمة الشرائع. وقال عليه السلام: ((لو أدركني موسى ما وسعه إلا اتباعي))" ، ويستند هنا ابن رشد إلى خاصية الخاتمية التي ميزت رسالة النبيﷺ.

---

[27]- ابن رشد، ص118.

خصوصية العالمية، فرسالة النبي محمدﷺ رسالة عامة لجميع الأمم والشعوب. ولذلك قال تعالى: " قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعا"الأعراف:158، وقال عليه السلام: ((بعثت إلى الأحمر والأسود)) ولذلك لم تأت معجزته آيات وخوارق بل فضل على الأنبياء بالوحي فقال: ((ما من نبي من الأنبياء إلا وقد أوتي من الآيات ما على مثله آمن جميع البشر، وإنما كان الذي أوتيته وحيا وإني لأرجوأن أكون أكثرهم تبعا يوم القيامة)) فالصفة التي استحق بها النبي أن يكون نبيا هي الوحي.

وخلاصة القول في استدلال ابن رشد تميز رسالة النبي محمدﷺ وشمولها وعالميتها، وقيامها على معجزة القرآن الكريم.

منهج الاستدلال الرشدي في إثبات النبوة:

انبرى ابن رشد للطعن في القيمة العلمية لآراء المتكلمين انتصارا للتفلسف، فانتقص من شأن خدمتهم للدين، ووصفهم بالمشاغبة والسفسطة، كما اتجه نحو بناء نظر استشكالي واستدلالي جديد في المسائل الكلامية ومنها مسألة النبوة على سنن الفلسفة الأرسطية بما لا يفضي إلى التعارض مع أصول الإسلام. وعليه فإن ابن رشد لم يرقه منهج المتكلمين في إثبات النبوة القائم على دليل الجواز والمماثلة بين الشاهد والغائب، واتخذ منهجا مغايرا لهم وهو الابتعاد عن الإيغال في التأويل فكان منهجه هو الفحص"عن الظاهر من العقائد التي قصد الشرع حمل الجمهور عليها."[28]وحرص على أن يتحرى في ذلك كله "مقصد الشارع ﷺ بحسب الجهد و الاستطاعة"[29] دون إحداث معاني مضطربة أو إظهار أقاويل محدثة أو تأويلات مبتدعة كما هو حال المتكلمين وسبيل الوقوف على مقصد الشريعة من إثبات بعثة الرسل هو "استقراء الآيات القرآنية، سواء تلك المتصلة بتاريخ الأنبياء والرسل أو المتعلقة بنوع البرهان أو المعجزة التي يستدل بها على صدق نبوتهم ورسالتهم

---

[28]- ابن رشد، ص45.

[29]- ابن رشد ، ص46.

والمستنبط من هذا الاستقراء بالنسبة للبعثة المحمدية أن مقصد الشارع منها هو شمول خطاب القرآن فيها للناس جميعا وإن تفاوتت مراتبهم الإدراكية"[30].

إن منهج ابن رشد هو منهج مقاصدي يقوم على استقراء الحقائق الإيمانية من الآيات القرآنية، وهذا ما جعل محمد عابد الجابري يحسم في أن ابن رشد تحرك في واجهة معرفية تجلى فيها الإبداع الرشدي وهي واجهة "التنظير لمنهجية جديدة في الكشف عن مناهج الأدلة في عقائد الملة، منهجية الأخذ بالظاهر مع مراعاة مقصد الشرع "[31].

وهكذا يبدو أن منهج ابن رشد منهج شمولي في إثبات النبوة، نظر إلى مسألة بعثة الرسل نظرة كلية منتقدا المبادئ المعرفية الكلامية وجعلها لا ترقى إلى مستوى البرهان، ولعل مسلك الاجتهاد المقاصدي في إثبات عقيدة النبوة والرسالة ينم عن رغبة رشدية في إعادة بناء المعقولية في العقائد الإيمانية. إن ما سبق لا يمنع من أن نضع هذا القول الرشدي موضع النقد والمساءلة على الأقل لأن هذا القول كان له ما بعده، كما أثار اليوم جدلا بين المتفلسفة العرب حول مدى عقلانيته أو تقليديته.

ابن رشد في ميزان النقد

إننا نتقدم هنا بتساؤل أولي: إلى أي حد اعتبر ابن رشد في رده على المتكلمين ونقده لاستدلالاتهم بآليات الاعتراض كما هي مقررة في علم الجدل؟ وهل التزم ابن رشد بآداب النقد والجدل أم وقع في عيب التشنيع على الخصم بعيدا عن آداب الاعتراض؟ كما نتساءل مستحضرين مشروع طه عبد الرحمن في نقد ابن رشد: إلى أي حد لم يخرج المنهج الاستدلالي الرشدي عن المنظور الكلامي؟ ألم تحمل دعاوى ابن رشد آثار علم الكلام على الأقل من جهة المضمون العقدي والتوحيدي؟

---

[30]- مجلة فكر ونقد، ص104.

[31]-التراث والحداثة، محمد عابد الجابري، ص 196.

يبدو أن فقه ابن رشد وتكونه القضائي وخبرته في المرافعات ورد المظالم لم يشفع له في التخلص من إطلاق نعوت وصفات على خصومه لا تليق بمقامات المعرفة الفقهية والفلسفية والقضائية التي حازها ابن رشد فوصفهم بالسفسطة والحماقة والهذيان...

إن اعتماد ابن رشد على أدلة النقل وبيان مدى توافقها مع أدلة النظر البرهاني في إثبات نبوة محمدﷺ، لا ينبغي أن يصرفنا عن غرض ابن رشد في إحقام نفسه للتأليف في قضايا كلامية ادعى أنه مخالف فيها للأشاعرة، وهو لم يخرج في الحقيقة عن كثير مما قرروه في كتبهم إلا ما كان من تقليده للمنهج الأرسطي والمنطق اليوناني. وقد انبرى شيخ الإسلام ابن تيمية لنقض المنطق الأرسطي الذي لايفيد سوى أمورا مقدرة في الذهن، ولا يفيد العلم بشيء موجود في الخارج إلا بتوسط شيء آخر غيره[32]، لذلك سلك ابن تيمية مسلك درء التعارض بين العقل و النقل مقدما أدلة عقلية وأخرى نقلية في كتابه (الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح) مظهرا أن العقل الصحيح لا يقدر على نفي نبوة محمد عليه الصلاة والسلام، مما يبطل الحاجة إلى إعمال المنطق الأرسطي.

إن مآخذ ابن رشد على الأشاعرة مآخذ مضطربة انفعالية أكثر منها برهانية، لم يظهر في رده خلاف ماأقروه من القضايا والشواهد، وليس كما قال الدكتور لؤي صافي أن ابن رشد قد

اندفع "إلى التصدي للنهج الكلامي الذي يستعيد مقدمات خصومه النظرية لإثبات آرا ئه العقدية والدعوة إلى الانطلاق من مقدمات الوحي عند البحث في المسائل الغيبية"[33] ويبدو أن لؤي قد تأثر بالرؤية التي تعلي من شأن المشروع الفلسفي الرشدي في مقابل المشروع الكلامي الأشعري، ولو اطلع حقيقة على الآراء الكلامية والتوجهات العقدية في الغرب الإسلامي (أبو الحجاج يوسف بن

---

[32]- نقض المنطق، ابن تيمية، ص:134.

[33]- إعمال العقل، لؤي صافي، ص99 .

موسى الكلبي في كتابه"التنبيه والإرشاد"، وابن العربي في مخطوطة"الأمد الأقصى"ومخطوطة"المتوسط في معرفة صحة الاعتقاد"[34] والسلالجي في كتابه البرهانية"وغيرها) قبل ابن رشد وفي زمانه وأعمل عقله فيها لصار إلى رأي مخالف لما أقره في كتابه:(إعمال العقل).

لقد أعجب ابن رشد بمنطق أرسطو فدفعه ذلك إلى عدم مخالفته والسقوط في شرك تقليده، لذلك اعتبر طه عبد الرحمن كتاب ابن رشد دفاعا عن التقليد في وجه الأشاعرة[35]، بل أكد طه عبد الرحمن "أن إعمال النظر في تقييد أصل المعجزات بمناسبتها للرسالة يظهر دخول عنصر أرسطي فيها، ويتجلى هذا العنصر في التمسك بالعلية، بحيث يقبل ما يمكن تعليله، إن سببيا أو مقصديا، ويرد ما لا يمكن إنزال هذا التعليل عليه"[36]

وهكذا فشل المشروع الرشدي في تحقيق اللقاء مع علم الكلام، ووضع اجتهاده الفلسفي أمام طريق مسدود لما أعلن أن الحق قد كمل عند أرسطو، فبقي "البحث العقلي عنده مقدما على البحث النقلي وذلك حينما أشار إلى اشتمال النصوص النقلية على ظاهر وباطن وأوجب تأويل ظاهر كل نص تعارض مع حقيقة أو نظرية عقلية"[37] حتى فيما يخص توقفه عند التأويل ووضعه حدودا وقيودا في ذلك، فإن ذلك لم يمنعه من تأويل الظاهر ("فاعتبروا يا أولي الأبصار" الاعتبار=القياس/ الراسخون في العلم =أهل البرهان) وهو معنى مخالف للسياق وغير مجمع عليه بين أهل البرهان مما ينفي ذلك الامتياز عن الطريقة البرهانية في مقابل الطريقة الجدلية.

وكيفما كان الحال، فإن ابن رشد قد شغل جهازا مفهوميا تميز بالتنوع على مستوى مصادره المعرفية من فقه وكلام وأصول وفلسفة وطب ...كالإمكان

---

[34]- ذكر المخطوطتين الأستاذ محمد بنتهيلة في أطروحته لنيل دكتوراه الدولة، مرجع سابق .

[35]- حوارات من أجل المستقبل، طه عبد الرحمن، ص ص:94_95

[36]- تجديد المنهج في تقويم التراث، طه عبد الرحمن،ص160و161.

[37]-إشكالية العقل والنقل عند أحمد تقي الدين بن تيمية، محمد بنتهيلة ص:13

والتجربة والجواز والمعجزة والدلالة القطعية والشرع والتأويل والحق والإبراء والدواء والمقايسة ....

كما توسع ابن رشد في استخدام استعارة الطب والصحة وجوز لنفسه أن يستمد برهانه العون من أساليب بلاغية كالتشبيه والتمثيل ...وهكذا نجده يشبه الشريعة بالدواء الأعظم وعلماء الكلام بأشباه الأطباء ووحدة الناس العقدية بالصحة .

كما مثل الشريعة بالطبيب الماهرالذي ركب ذلك الدواء الأعظم ...ومثل المتكلم المتأول بالمريض الذي له تركيب بيولوجي غريب ونادر، واعتبر ابن رشد هذه التمثيلات صحيحة تدعيما لليقين العقلي[38].

خاتمة -

ما أشد حاجتنا اليوم إلى النظر إلى أمور العقيدة نظرة مقاصدية شمولية تخرجها من تعقيدات المتأولين وجمود أصحاب المتون والحواشي وتبعث فيها روحا جديدة نقدم من خلالها إجابات مقنعة لإشكالات العصر عبر استقراء منهجي وعقلي لأصول التوحيد والاستخلاف والعمران كأصول قرآنية وأهداف رسالية عالمية تجلت في الرسالة المحمدية، الرسالة الخاتمة. وهنا تصح عودتنا إلى ابن رشد، عودة واعية بالشروط التاريخية التي أنتج فيها الخطاب الرشدي، تتجاوز المنزع التجزيئي الرشدي نحو تكاملية معرفية تركيبية تدفع وهم استقلالية البنيات المعرفية والحقول المعرفية، وتلتزم بخصوصية المجال التداولي للعلم، وترتبط براهن العصر من أجل كشف جديد لمنهجية معاصرة تكون قادرة على تقديم حلول للأزمة المعرفية والمنهجية التي يعيشها العالم، والرد على البراهمة الجدد المنادين بأطروحات الدين

---

[38]- أورد ابن رشد العديد من هذه التمثيلات في كتابه، انظر: الصفحات:112_115_116_119وغيرها.

الطبيعي، اعتبارا أن التمييز بين أمر العقيدة والشريعة والأخلاق هو تمييز مدرسي إجرائي وليس تمييزا متأصلا في مصادر هذا الدين الذي جاء رحمة للعالمين.

المراجع

-إشكالية العقل والنقل عند أحمد تقي الدين بن تيمية، بنتهيلة محمد،رسالة لنيل دبلوم الدراسات العليا في الدراسات الإسلامية،إشراف الشاهد البوشيخي ،1409

-إعمال العقل، لؤي صافي،دار الفكر(دمشق)دار الفكر المعاصر(بيروت)الطبعة لأولى، 1998

-تجديد المنهج في تقويم التراث، طه عبد الرحمن، المركز الثقافي العربي، الطبعة الثانية.

-التراث والحداثة:دراسات ومناقشات ، الجابري،محمد عابد ،المركزالثقافي العربي الطبعة الأولى 1991.

-حوارات من أجل المستقبل ، عبد الرحمن طه ،منشورات الزمن ،الكتاب 13 أبريل 2000.

- تطور المذهب الأشعري في الغرب الإسلامي، إحنانه يوسف ،منشورات وزارة الأوقاف 2003.

-التوجهات العقدية في المغرب و الأندلس في ق 6هـ(من خلال الإلهيات)، بنتهيلة محمد،دكتوراه الدولة،إشراف الدكتور محمد الكتاني1998

- حقائق الإعتقاد ومقاصد الشرع في الخطاب الرشدي ، الحسني اسماعيل، مجلة فكر ونقد ،السنة السابعة العدد 66فبراير 2005

-الدين والفكر في شراك الاستبداد، خاتمي محمد،دارالفكر المعاصر (بيروت) دار الفكر(دمشق) الطبعة الأولى 2001.

- فقه التدين فهما وتنزيلا ، النجار عبد المجيد ،الزيتونة للنشر والتوزيع ،الطبعة الثانية 1995 .

- الكشف عن مناهج الأدلة في عقائد الملة، ابن رشد، أبوالوليد محمد، منشورات دارالآفاق،بيروت الطبعةالثانية،1979.

- مقدمات ،المجلة المغاربية للكتاب عد د 15 شتاء 1998.

- نقض المنطق، ابن تيمية، تحقيق الشيخ محمد عبد الرزاق وغيره، دار الكتب العلمية،الطبعة الأولى 1999